يا عم يحيى

بقلم

د. عبد الغفار مكاوى

كانت روحى قد أوت الى الفراش منذ لحظات وتركت باب حجرة النوم موارباً . وكنت اسمع انفاسها تتردد وانا جالس فى الصالة اتصفح جريدة والنظر حتى تسقط من يدى كما هى عادتى كل ليلة فاعرف ان موعد نومى قد جاء وانهض لاغلق الشقة واندس فى الفراش - ولم اكن مستغرقا فى الجريدة التى كنت ابحث فيها عنا عن شىء يسليني حين سمعت الصوت . الشقق فضاء و سكون الليل كالسكين اللامعة فانتصبت وطار النوم من عينى :

يا عم يحيى ! يا عم يحيى !

نفس الصوت الذى اسمعه منذ ليلتين . مبحوح ومرتعش ومفاجىء وملسوع ، يتلوى ويستنجد ويبكى ويستغيث . كانه جرح غائر مشقوق فى مكان مظلم عميق ، جرح امسح له لسان يترف بالعويل والصراخ كما لو كانت آلاف السياط تنهش جسد صاحبه ، آلاف الأيدى والأقدام تضربه وتلكمه وتركله وآلاف الطيور والوحوش تمزق لحمه وتلغ فى دمه وتحاول ان تبلع صراخه فبقيت مذهولا تسترحم الخليقة كلها .

ـ يا عم يحيى ! يا عم يحيى !

لم يكن صوتا . فالصوت الانسانى مهما ارتفعت نبرته يحس نحوه بنوع من الالفة . انه لا يفاجئنا ، ولا يروعنا ولا يذهلنا كما فعل . كان حشرجة مخلوق تنهار السماء فوقه ، يرتج الزلزال تحت قدميه ، يجر السيف على رقبته ، يمر جلده على كل آلات التعذيب التى عرفتها العصور المظلمة ،

يسحق تحت طاحونة ثقيلة جبارة .

سقطت الجريدة من يدى ولكن اللوم طار من عينى الى الأبد . وقعت فى الصالة ودقات قلبى ترتفع وترتفع ، يخيل الى أن أفضل وسيلة للهروب من هذا الصوت ان أخلع ملابسى وأخرج عاريا من البيت وأجرى فى الشوارع وأنا أضع يدى على أذنى . كان باقى فى البداية منخفضا ممدودا ، مميز الحروف ممطوطا فى نهاية كل كلمة . ان الباء فى بحيى تمتد كالسد المستطيلة الذليلة الباكية ، تعاتب وتشكو وتنتظر . انه صوت طيب ، مستحيث ولكنه لا يزال يرجو ، ينادى ولكنه يتوقع ان يسمع من يرد عليه ، يتوسل ويبكى ولكنه ينتظر ولم ييأس بعد . ثم يزداد حدة ، وتسرع مقاطعه تتصطدم بعضها كعربات القطار ، وترتفع درجته وتزداد تحولا وتوترا وسخطا وعصبية فتأكل الحروف بعضها ، وتقفز واحدة وراء كل دلالة شريرة لتصبح صيحة حادة خارجة مبتورة كسيف يغمد فى الصدر ثم يسل فجاة . ومع كل صيحة تزداد الضربات على باب العمارة التى أسكن فيها . وتصبح الضربات هى نفسها صيحات ملهوفة ملسوعة مستغيثة ، والصيحات ضربات ثقيلة وحانقة ومدوية ترج الأبواب والشبابيك .

منذ ليلتين وأنا اسمع هذا الصوت يحشرج وسط الظلام والسكون ، والضربات تهز باب العمارة وكأن صاحبها يدق على باب مقبرة ليوقظ أصحابها . كان فى الليلتين السابقتين ينطلق فجاة ليستمر لحظات ثم يختفى فجاة كما جاء لا تكاد تفيق من الذهول حتى يذهب . لا بد ان السكان قد ظنوا مثلى أنه أحد أقارب البواب ، جاء متأخرا فى عز الليل فاراد ان يوقظه من نومه الثقيل ، أو كان صاحبه يعانى من مغص هائل أو يطلب نجدة عاجلة فافاقوا لحظة من نومهم ثم نسوا الحكاية . او لابد أنهم — حين تكرر هذا الصوت فى الليلة التالية — قد عزوه الى كابوس ثقيل كم انفاسهم بعد أكلة دسمة ، كابوس ضخم أسود كثيف الشعر اشتركوا فيه جميعا وحين صحوا منه كان الصوت قد راح لحاله . ولكنه حين تكرر هذه الليلة على هذه الصورة الذبيحة كحشرجة مقتول ، الملهوفة كاحراس عربات الحريق أو الاسعاف الصارخة كبكاء شجاد تنهشه وحوش الجوع المستبعده ، كصياح مجرم توشك أيدى العساكر أن تقبض عليه — لعله حين تكرر هذه الليلة على هذه الصورة بدأ يسيء الى انه لابد برغم وحشيته وغربته عن عالم الأرض أن يكون مع ذلك صوتا انسانيا — صوت بشر مثلنا لابد على كل حال ان نرى ماذا يريد صاحبه ولماذا يعكر نومنا .

كنت لا ازال اقف فى الصالة حين سمعت جارى الأستاذ عادل همام يفتح باب شرفته فى عصب هائل وهو يسب ويلعن ويشرطم . وأسرعت أغلق باب غرفة النوم على زوجتى حتى لا تفزع من نومها وفتحت أنا أيضا شباك حجرة الصالون المطلة على الشارع العمومى . كان الصوت لا يزال يرن فى الآذان وعلى الأسفلت كانه أوانى نحاسية ترطم وتطل

الموجات المنبعثة عنها تتسع وتتسع صاحة مدوية حزينة . وسمعت جارى الأستاذ عادل همام ـ الذى كان يبدو فى رونه الأحمر وشعره المنفوش وجسده المكور كانه بصلة افرنجية ـ يشهق قائلا فى صوت كالرعد : يا جدع انت ! يا جدع انت ! دوشتنا الله يدوشك !

ولم يكف الصوت عن رنينه الخارج المنتظم الرتيب ، بل ارتفع وعلت درجته وزاد الحاحه وكان سياطا نارية جديدة تلهبه وتعذبه بعذاب جديد : ياعم يحيى ! يا عم يحيى ! يا عم يحيى ! والياء الاخيرة طويلة طويلة تنتهى مقطوعة كانها تقف فى ثم تبدأ « يا عم يحيى » من جديد أقرب الى النشيج اليائس اليتيم المهجور ـ ورعق جارى ـ بعد أن سمع صوت نوافذ أخرى تفتح فى العمارة ، وأنوارا توقد ، وهمسات تعلو وتتساءل وتتضارك :

عم يحيى من ؟ عم يحيى من يا جدع انت ! .

ويظهر أن صاحب الصوت سمع جارى أو تنبه الى أنه يقصده بالسؤال . فأوقف صرخاته الهائلة على البوابة وان لم يوقف نداءه المكرر المستغيث : عم يحيى يا بواب ! يا عم يحيى يا بواب !

فرار جارى ـ ويظهر انه تلفت حوله ورفع رأسه فلمح الحيران ينظرون من الشبابيك وشعر أنه موكل عنهم فى اعتماد هذا الصوت !

ـ البواب اسمه سالم . ليس هنا احد اسمه يحيى . ثم ان البواب مسافر عند أهله فى الصعيد .

ورفع رأسه من جديد الى الأدوار العليا وكانه يتأكد بنفسه انه ليس هناك بالفعل أحد من سكان العمارة يهتم بهذا الاسم . وسمع الصوت من جديد يتاوه وينّ فى استسلام وضراعة وكان صاحبه ـ الذى بدا الآن واضحا امام الباب بطيلسانه الأبيض الطويل وقامته النحيلة ورأسه الصغيرة ـ يسترحم اليد التى تطعمه اللطمة الأخيرة : اصبح يا عم يحيى يا بواب ! أنا سايق عليك اللى تصحى يا عم يحيى . وصاح الأستاذ عادل بعد أن لاحظ وجودى فى النافذة فى صوت أقل حدة وأقرب الى الاقناع منه الى الغضب : يا أخى قلت لك البواب اسمه عم سالم . الله ! كل ليلة تطير النوم من دماغنا ؟ كل ليلة هوسة ورعيق وخبط على الأبواب ؟

فاقترب الرجل ناحيه ، ورفع رأسه التى كانت الآن تحت شرفته تماما وقال فى صوت كانه دموع تسقط من الحجرة والنبى تنادى لى على عم يحيى يا سعادة البيه . الله يخليك نادى لى على عم يحيى ! .

فمال الأستاذ عادل وهو يكاد يكلنا بدينه على سور الشرفة ويمد رأسه ليتحقق من صاحب الصوت الذى يخاطبه : عم يحيى من يا جدع انت ؟

فاجاب صاحب الصوت : عم يحيى يا سعادة البيه ـ عم يحيى الرجل الطيب . سعادتك لا تعرفه ؟

فصرخ الأستاذ عادل نافد الصبر : لا اعرفه ولا عمرى شفته !

فعاد الصوت كانه يجفف دموعه ويقول

متعجبا ، عم يحيى يا ناس ! من لا يعرفه يا عالم ؟ .

فصاح الأستاذ عادل وقد رأى ان المناقشة طالت اكثر مما ينبغى : قلت لك لا اعرفه ولا عمرى شفته ـ يا الله روح نام وخلى الناس فى حالها .

فقال الرجل فى حسده لا يخلو من العناد : اروح يا سعادة البه ؟ الله يسامحك ! اروح من غير عم يحيى ! يعنى عرضيك والنبى ؟ بلدمتك يرضيك ؟

فحسست انى لابد ان اساهم بشىء فى الموضوع . فسمعت اولا ثم قلت لحارى : يظهر انه مجنون يا عادل بك .

فقال الأستاذ عادل وكأنه يحيى معك حق يا استاذ سامى الظاهر انه مجنون .

ومن نحتنا ان جنانه لا يظهر الا تصف الليل . (ثم موجها الكلام الى الرجل) اسمع يا جدع . اذا لم تمش ناديت على العسكرى !

فقال الرجل وهو يداري وجهه بذراعه في حركة أقرب الى السخرية منها الى الخوف : العسكري ؟ ! ويرصيك البهدلة يا بيه ؟ طيب والله وحياة سعادتك انه رجل طيب . رجل طيب ابن ناس طيبين . رجل لا يستحق الا كل خير . العسكري مرة واحدة ؟ طيب والله انا جيت لأجل الاقيه . خبطت على الأبواب . ناديت في عز الليل . جمعت وعطشت وشفت الممر . تركت أهلي وطلعت امراتي لأجل خاطره . مستعد ابيع هدومي بس الاقيه .

فقال الأستاذ عادل وقد لاحظ ان المناقشة قد طالت وان معظم الشبابيك قد اغلقها أصحابها ومعظم الأنوار قد انطفأت : قال وقد بدا في صوته انه بدا يهتم بمعرفة الجواب : طيب لماذا تريده ؟ عم يحيى دناعك ؟ فقال الرجل لماذا اريده ؟ طيب اسأل الدنيا عليه . عم يحيى يابيه رجل طيب . رجل صحيح وربنا ساترها معه .

قال الأستاذ عادل وقد بدا يلاحظ ان الرجل يهذي وان من المحال له ان يستمر في الاستماع اليه : طيب يعني ضاقت الدنيا في وجهك . يعني لا تبحث عنه الا في شارعنا ؟ وعلى باب عمارتنا ؟ قال الرجل في استسلام : وحياتك عندي يا بيه انا دخت عليه . من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق قلبت الدنيا عليه . خبطت على الأبواب طردوني . ناديت ما أحد رد علي . قلت لهم عم يحيى قالوا لي مات من زمان . قلت لهم ياناس عم يحيى هو عم يحيى — طول عمره رجل طيب ويحب المعروف ولازم الاقيه . صرخت صرخوني . جرحت جروا ورائي سقت عليهم اللي ما حد حن علي . بست رجليهم قلعوني هدومي والبوني القميص . هربت منهم وقلت مصيري الاقيه . عم يحيى موجود وربنا موجود . قلت يا ولد ان مالاقيته في السكك والحواري يمكن تلاقيه عند الصيدليات والشوارع النظيفة — ربنا كريم ولازم — .

التفت الأستاذ عادل الى وقال : الرجل يحرف . احسن طريقة تدخل نام . تصبح على خير يا أستاذ سامي . قلت تصبح على خير وأغلقت ورائي شباك الغادة ونهيات للنوم . ولم تمض لحظة حتى عاد الصوت من جديد . متوسلا في هذه المرة ومجروحا ، باكيا أكثر منه مستعيشا ، يائسا أكثر منه ملحا او عنيدا . وتوالت الضربات الثقيلة ترج البيت كأنها تهز شجرة قديمة من جذورها : يا عم يحيى ! حرام عليك يا عم يحيى ! انا في عرضك يا عم يحيى !

وفتح شباك الشرفة المجاورة فجأة فارتطم بالجدران في غضب وجنون . وسمعت صوت الأستاذ عادل الجهوري يرعق ويسب ويلعن الدنيا ومن فيها : يا شاويش ! يا شاويش !

وفتحت انا أيضا نافذتي ووقفت أنتظر ما يحدث . وما هي الا لحظات

حتى لمحنا الشرطي يتدحرج على أرض الشارع ، تلمع أزرار سترته على ضوء المصابيح الخافتة على الجانبين ، ويختلط كعب حذائه برصيف الأستاذ عادل بالصرخات الممدودة التائهة بالضربات التي تنهال على البوابة الحديدية بوحشية الليل وعتمة الظلام وأصوات الرجاح والنوافذ التي تفتح واحدة بعد الأخرى بنداءات الغضب والاستفسار والسخرية التي تنبعث منها في نفس واحدة . وأقبل الشرطي فأمسك بالرجل من رقبته ، ولم يكن في حاجة الى أن يسأل فالجريمة واضحة وارهاج الناس في مثل الليل لا يحتاج الى دليل . قال الأستاذ عادل يا شاويش ! أنا عادل همام القاضي . ورميلي الأستاذ سامي عبد المولى مدرس تانوي . هذه ثالث ليلة يرعجنا فيها . ناقص يوقع العمارة على رءوسنا . الأولاد فزعت من النوم . سمعنا الخبط فلما الغيطة قامت . أرجوك يا شاويش تعمل اللازم .

قال الشاويش وهو يجيبنا في تكاسل حاضر يا سعادة البيه انت وهو على القسم قدامي يا بور القرد . اي خدمة يا بهوات والله . يا بيه من ليلتين سحبته بعضي على القسم . الشاويش البوبتجي فضل يسأله طول الليل . خطرف ولخبط باس تراب الأرض وقال بس كله ولا الحبس يا سعادة الشاويش . كله ولا سراية المجاديب . صمت عليها رميناه في الشارع وقلنا وزفه على الله . هو حر مع عم يحيى متساعه . رجعت للسكة يا بور القرد !!

قال الأستاذ عادل في لهجة قاطعة المهم تعمل اللازم يا شاويش . ثم وهو ما يزال يوجه كلامه الى الشاويش : تصبح على خير يا أستاذ سامي !

صفع باب الشرفة وراءه . وبقيت أنظر الى الشاويش الذي امسك يده برقبة الرجل وراح يدفعه أمامه ويتشاتم بصوت عال . واضطر أن يوسع من خطواته ليلحق بالرجل الذي كان يهيج أمامه كالجمل المسرع في طريقه الى السلخانة . ولم تمض لحظات حتى اختفى شبحهما في الظلام .

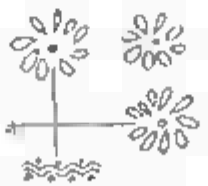

حين أوى الحاج رضوان الى فراشه فى تلك الليلة . لم يكن ما يريده هو النوم كان فقط يود ان ينفرد بنفسه ، ان يفكر وحده بهدوء فى كل ما حدث لقد طل طوال النهار وجزءا من الليل يستقبل الناس الذين توافدوا على داره من قريته ومن القرى المجاورة ، ولأول مرة وجد نفسه فى موقف من يستمع الى هؤلاء الناس دون ان يكون فى مقدوره ان يقول لهم كلمته لتكون كالعادة الكلمة الأخيرة والحاسمة ، لأول مرة وجدهم يرفضون رأيه رفضا باتا ، ولأول مرة يجد نفسه ضعيفا أمام رفضهم ، وفى النهاية موافقا عليه ومسعدا به !

الناس والحقيقة

بقلم : محمد أبو المعاطى أبو النجا

ورغم ذلك ، لم يكد يغلق خلفه باب حجرته ، ويغير ملابسه ، ويطفىء المصباح المعلق على الحائط بجوار سريره ، ويسحب أطراف الغطاء على جسده ، حتى وجد جميع هؤلاء الذين غادروا داره منذ حين يملؤون حجرة نومه ، فلا تضيق بهم الحجرة ولا يضيق هو بهم ، وراح يستمع الى كلماتهم الى بعض هذه الكلمات .. التى كانت تتردد منذ حين ..

« من كان يظن ان يوما كهذا سيأتى ؟

ـ لقد جاء من أجل ان يأخذ الحاج رضوان المكان الذى يستحقه ..

ـ فى الحقيقة هو يستحقه من سنين طويلة !

ـ منذ سنين كانت الدنيا غير الدنيا .

ـ لا يزال الحاج فى أحسن صحة وأمامه عمر طويل بإذن الله .

ـ يا رجال .. لقد كبرت .. البركة فى شباب هذه الأيام (استمع الحاج الى صوت نفسه وكأنه شخص آخر تماما) ..

رد شاب من قرية مجاورة : شباب هذه الأيام يريدون ان تعرف انهم لم يسيوا خدماتك للناس .